الأهرام
مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: المصور
التاريخ: ١٩٧٥/١٠/٢٤

المسيرة الطويلة
من
الهزيمة إلى النصر

خمس سنوات مع السادات

الرجل الذى أحال هزائمنا إلى انتصارات

● بعد ذلك الخطاب التاريخى الهام الذى القاه الرئيس محمد أنور السادات فى ٢٨ سبتمبر الماضى بمناسبة الذكرى الخامسة لوفاة الزعيم الراحل جمال عبدالناصر رحمه الله ، يأتى ذلك الخطاب الهام والخطير الذى القاه الرئيس السادات فى ١٨ اكتوبر ١٩٧٥ فى افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة لمجلس الشعب والذى وجهه بصفة خاصة الى شعب مصر ، وبصفة عامة الى الامة العربية المجيدة .

والذى لاجدال فيه ان كل خطاب من هذين الخطابين التاريخيين يكمل الاخر ، وهما معا يعتبران - بحق - وثيقتين من اهم واخطر وثائق تاريخنا المعاصر

والذى اريد ان اقوله - فى البداية ، وبدون اية مبالغة من جانبى - ان هذين الخطابين ينبغى أن يكونا موضعا للعديد من الدراسات المستفيضة من جميع قطاعات الجماهير العربية .. لقد ازاح الرئيس السادات الستار فى هذين الخطابين عن الكثير من الاسرار والوقائع المذهلة التى كانت خافية على جماهير شعبنا .

وفى هذين الخطابين تحدث الرئيس السادات بكل ماهو معروف عنه من صدق ، وايمان ، واخلاص عن بعض ماعاناه شخصيا وما عانته مصر معه على امتداد السنوات الخمس الماضية منذ ان آلت اليه قيادة هذا الشعب فى ١٦ اكتوبر ١٩٧٠ الى اليوم ، تلك المعاناة التى تعتبر بلا جدال اروع ماتحمله البشر من صبر وقوة احتمال .

وفى هذين الخطابين ايضا تحدث الرئيس السادات ـ من قمة المسئولية الوطنية والقومية ـ عن آلام شعبنا وامانه ، فكان بحق خير معبر عن وجدان هذا الشعب فى آلامه ، وامانه .

لم يترك الرئيس السادات قضية من القضايا التى يوليها شعبنا العربى اهمية بالغة الا وعالجها باسلوب القائد العظيم الحريص على حاضر ومستقبل شعبه ، وامته . واعتقادى الراسخ ان خطابى الرئيس السادات فى ٢٨ سبتمبر و ١٨ اكتوبر ١٩٧٥ سيكونان من اهم المراجع بالنسبة للمطلعين والباحثين والدارسين والعاملين فى كل مجالات العمل السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

ويطيب لى ان اركز فى هذا المقال على بعض القضايا العربية التى وردت فى خطابى السيد الرئيس والتى كانت مثار اهتمام كل جماهير شعبنا العربى من المحيط الى الخليج

وابدأ بموضوع الظروف القاسية والمريرة التى اجبرت الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ـ يرحمه الله ـ على قبول مبادرة روجرز واعلانه قبول تلك المبادرة « على ترابيزة » المفاوضات فى الكريملين امام القادة السوفييت « وكيف قامت قيامة بعض الاخوة العرب علينا زى ماقامت اليوم فى موضوع فض الاشتباك الثانى »

واشير الى قول الرئيس السادات : « انا باهدى هذه القصة الى اخواننا اللى الاتحاد السوفييتى بيرسم لهم الخطط وبيخطط لهم ، وبيديهم الاخبار والمواقف »

وقول الرئيس السادات : « انا باحكى الكلام ده النهاردة لان الاتحاد السوفييتى من ضمن اللى لابسين قميص عبد الناصر ، ماهو لبسوه كتير ! اللى كانوا بيشتموا عبد الناصر ، اللى قلت حديثا عنهم فى الخطبة : فى تنظيمات ، تيارات حزب البعث فى سورية والعراق وفى كل مكان ، دول معروف ايه اللى قالوه لانه مسجل فى الصحافة ، والصحافة موجودة»

ولاهمية هـــذه النقطة اريد ان اعود الى الوراء قليلا . الى يوليو ١٩٧٠. عندما كان المؤتمر القومى مجتمعا فى ٢٤ يوليو ١٩٧٠ ووجه احد اعضـــائه الى الرئيس عبد الناصر السؤال التالى : يســـاور المخلصين من ابناء الامة العربية بعض الشك فى ان الموافقـة على المبادرة الامريكية سيستغلها الحاقدون ضد سيادتكم شخصيا فما هو اثر ذلك على الموقف ؟ »

ويجيب الرئيس عبد الناصر بالحرف الواحد :
« فيه ناس حيستغلوها والناس الحاقدين معروفين واحد ، واحد ، وباعتقد ان الشعوب العربية والجماهير العربية عارفاهم ، لان بقى لهم سنين بيحاولوا ولكن الحقيقة حينما ناخذ هذا القرار يجب ان نضع فى اعتبارنا موضوع واحد : ماهى مصلحة امتنا ، ماهى مصلحة بلدنا ، ماهى مصلحتنا ، ايه الظروف المحيطة بنا . اما الحاقدين والمعادين فده موضوع مستمر ولا نهاية له ! »

وكلنا نذكر ـ وصحافة عمان ، وبيروت وبغـــداد تسجل ماتذكره ـ ان المظاهرات التى انطلقت فى عمان وبيروت وبغداد ضد عبد الناصر لقبوله مبادرة روجرز كانت اعنف واقسى مظاهرات وجهت الى زعيم عربى

وكلنا نذكر ايضا ان الاذاعة الفلسطينية التى كانت توجه من القاهرة كانت تنقل بعض صور صوتية لهذه المظاهرات كما كانت تذيع بعض اخبارها وتنقل ـ وهى الصادرة من القاهرة ـ الكثير من التهم الشـــنيعة والفظيعة التى كانت توجه للقيادة فى القاهرة ، حتى ان القاهرة فى ٢٨ يوليو ١٩٧٠ قد اضطرت الى اغلاق تلك الاذاعة مؤقتا .

وكلنا نذكر ايضا ان القاهرة ردت على بعض هذه الحملات الشرســـة اكثر من مرة ، وكان من بينها : « يبقى انه من دواعى العجب ان الذين يتحدثون عن وقف اطلاق النار لمدة ٩٠ يوما هم الذين يطلقون النار فعلا وان الذين ترتفع اصواتهم بمعارضة وقف اطلاق النار هم الذين لم يمارسوا اطلاق النار واكتفوا فى حربهم بالكلمات ! ان القاهرة تعتبر ماجرى الان من مزايدات تصرف غير قومى ، بل ولا اخلاقى لان الذين لم يحاربوا يريدون الان ان يتاجروا بدماء الشـــهداء الذين اطلقوا النار وتلقوها فى صـــدورهم ولم يكتفوا باطلاق الشعارات او ترديدها . ان هناك محاولات تجرى الان فى العالم العربى لاظهاره بمظهر الانقسام وهنـــاك فيما يبدو الان عناصر عربية تبذل كل جهدها لاحداث

بل لافتعال دواعى الانقسام فى حين تتولى جهات اجنبية مهمة الترويج لذلك وتضخيمه . ان هناك على وجه التاكيد عناصر فى العالم العربى تتحرك فى هذا الوقت بطريقة لا توحى بان قصدها هو خدمة المصلحة القومية بقدر ما ان قصدها هو ان تكسب لنفسها ولاغراضها بصرف النظر عن اى اعتبار اخر »

وكثيرون جدا هم الذين يذكرون ان الرئيس جمال عبد الناصر قد وجه رسالة الى الرئيس احمد حسن البكر فى ٢ اغسطس ١٩٧٠ ردا على رسالة كان الرئيس احمد حسن البكر قد ارسلها اليه وفى تلك الرسالة وردت العبارات التالية :

● ان التجارب علمتنا ان العبرة ليست بما يقال فى المحافل ولكن العبرة بما يجرى تنفيذه على الواقع وحين تلوح امامنا فرصة للتحرك فاننا لانملك حق التغافل عنها خصوصا وان هناك اجزاء كثيرة من الارض العربية تتعرض لمهانة الاحتلال كما ان مئات الالوف من ابناء شعبنا يرغمون على العيش تحت وطاته ، كذلك فان هناك عشرات الشهداء الابطال يسقطون فى صفوفنا كل يوم .

● ان الشعب المصرى لم يمارس شرف النضال من فوق منابر الخطابة او من دهاليز المناورات السياسية وانما مارس دوره فى وضح النهار وتحت النور وفى ميادين الخطر بكل اعبائه ومشقاته المادية والمعنوية

● لست أرى اننا نستطيع ان نبنى مستقبل امة وان نصون حرية هذه الامة بالكلمات .

● لقد دهشت الى حد كبير من المسيرة التى نظمتها السلطات العراقية سواء اكانت رسمية او حزبية ضد الجمهورية العربية المتحدة .. لقد كنت اتمنى لو ان الجهد الذى بذل لتنظيم هذه المسيرة والاعلان عنها وجه الى ماهو اجدى منها ، وكان الاجدى منها توجيه طائرة تقصف مواقع العدو ، او تعزيز فاعلية الجيش العراقى على الجبهة الشرقية ضده .

● لست اخفى على سيادتكم اننى احيانا اتساءل لماذا لم تتلق قواتكم على الجبهة فى اى وقت من الاوقات امرا بالاشتباك مع العدو ؟ لماذا لم تقم طائرة من طائراتكم بالاغارة على مواقعه ؟ لماذا لايوجه العدو اشتباكاته نحو قواتكم ولماذا لايوجه طائراته نحوها .

● ان تركيز العدو كله على الجبهة المصرية والنار ضد العدو كلها من الجبهة المصرية وذلك شرف نعتز به ونعتبره شهادة لنا عن ادراك عميق بانه ليس بالشعارات وحدها تدور الحرب وتتم معارك التحرير »

وكلنا نذكر ايضا انه كان للقاهرة تعليق آخر على حملات النظام العراقى ضدها جاء فيه : ان القاهرة تقدر ان النظام الحزبى الحاكم فى العراق ، منذ انقلابه على الرئيس السابق عبد الرحمن عارف كان يبحث لنفسه عن دور . وبعد عزلته داخل العراق بسبب عمليات التصفية الدموية ، التى انغمس فيها ذلك النظام ، وبعد خلافه المستحكم مع سوريا برغم ان الحكم فى البلدين لجناحين من نفس حزب البعث ، فان هذا النظام بدا يبحث عن دور لنفسه خارج هذا الاطار كله .

ان القاهرة كانت على استعداد لان تساعد هذا النظام على ان يجد لنفسه دورا يقوم به فى الساحة العربية على امل ان يؤدى هذا الدور الى مشاركة ايجابية تمثل مطامح شعب العراق ، وامانيه القومية ولكنه من سوء الحظ ان هذا النظام لم يجد لنفسه الا هذا الدور الذى بدا يلعبه اخيرا وهو دور لاتستطيع القاهرة ان تتسامح فيه أو تسكت عنه لانه يعتبر اتجارا بدماء الابطال الشهداء .

ونذكر ايضا ان وزارة الخارجية العراقية عندما احتجت على القاهرة فى ٤ اغسطس ١٩٧٠ كان رد القاهرة : « ان تدبير المظاهرات ضد الجمهورية العربية المتحدة واذاعتها بالراديو والتليفزون لايمكن ان يكون هو الشىء الذى ينسجم مع العلاقات بين البلدين والحرص على وحدة الصف العربى .. ان حملة التحريض التى شنها النظام الحاكم فى بغداد وقد وصلت هذه الحملة الى حد دفع مبالغ ضخمة من المال فى اكثر من عاصمة عربية لتمويل مظاهرات ضد القاهرة ولم تنجح هذه الحملة فى اى عاصمة عربية.

وربما كان قليلون جدا هم الذين سمعوا الرئيس عبد الناصر يرحمه الله وهو يخاطب الرئيس العراقى فى اجتماعات طرابلس التى التقى فيها سبعة من رؤساء الدول العربية فى يومى ٢١ ، ٢٢ يونية ١٩٧٠ اذ قال بالحرف الواحد : من سوء الحظ اننا لانستطيع ان نثق فيكم . ان جميع تجاربنا السابقة معكم تدعونا الى الشك فيكم وفى كل ماتتقدمون به . ان تحرير فلسطين لن يكون بالكلمات وانما تحرير فلسطين يكون بالدم .

ويطول بنا المقام لو حاولنا ان ننقل هنا بعض ماقاله البعثيون وبعض قيادات المنظمات الفلسطينية ـ وهم الذين يرتدون اليوم قميص عبد الناصر ـ فى عبد الناصر شخصيا عندما قبل مبادرة روجرز ، كما انه يطول بنا المقام لو حاولنا ان ننقل هنا بعض مايقوله هؤلاء الاخوة اليوم عن اتفاقية سيناء وعن الرئيس السادات .

وكل الذى استطيع ان اقوله ـ وباختصار شديد ـ ان الحملات الشرسة هى هى لم تتغير ، بعباراتها ، والفاظها ، اللهم الا فى بعض الاسماء : السادات بدل عبد الناصر ، اتفاقية سيناء مكان مبادرة روجرز وتعديل آخر هو ان بعض الذين كانوا يقودون الحملات الاعلامية ضد هؤلاء العادين لمصر ، هم الذين يحتفى بهم اليوم وبمقالاتهم وتصريحاتهم فى دمشق وبغداد

وانتقل الى نقطة أخرى من تلك النقاط التى أشار اليها السيد الرئيس فى خطابه يوم ٢٨ سبتمبر الماضى وهى الخاصة بلعبة السوفييت فى ضرب الانظمة العربية بعضها ببعض .

ويذكر الرئيس السادات انه كان فى الاتحاد السوفييتى فى أول مايو ١٩٦٧ « وكان السوفييت ايامها بيضربوا مصر بسورية وبيقولوا ان سورية هى حزب البعث اللى طالع واللى حيحرر الامة العربية ، بيغيظوا عبد الناصر اللى لابس قميصه اليوم . وكيف ان السوفييت كانوا مدلعين البعث وبيضربوا مصر بسورية على طريقتهم زى ماقبل كده ضربوا مصر بالعراق ، والعراق بمصر ايام عبد الكريم قاسم ، هم عادتهم كده : ايامها كان التاريخ يعيد نفسه تماما بعد قرارات الخبراء السوفييت حيث انهالت الاسلحة على سورية . نفس العملة دى كرروها اليوم ، عايزين يضربوا مصر بسورية وحافظ الاسد بالسادات زى ماكانوا بيضربوا صلاح جديد بعبد الناصر .. هى نفس العملية مش جديدة على الاتحاد السوفييتى »

حول هذه النقطة انقل بعض آراء غير عربية تؤيد ماذكره الرئيس السادات فى خطابه

● وقالت صحيفة « التايمز » فى ابريل ١٩٧٢ تحت عنوان « موسكو تولى وجهها شطر العراق بعد مصر » يدل ارتفاع العلم الروسى فوق موانى العراق على انه سيبدأ عهد جديد فى العلاقات السوفييتية هنا

الاسبوع ، لقد قامت الحكومة البعثية المعزولة عن بقية المعسكر العربى بالغاء عيدها القومى يوم الجمعة القادم بهذه المناسبة ، بدأت دلالات متزايدة فى الاشهر الاخيرة على أن الروس مهتمون بتحويل العراق الى قاعدة اكثر صلابة لعملياتهم فى المستقبل . ولا ريب فى أن النكسات العنيفة التى تعرضوا لها فى أجزاء اخرى من العالم العربى كانت عوامل هامة أدت الى التحول فى هذا الاتجاه .

وينطوى التورط فى العراق بالنسبة للروس على اخطار أقل بكثير من تمركزهم على طول قناة السويس اضف الى ذلك ان النزعات الانعزالية والراديكالية لنظام حكم البعث تبعث على الامل فى اقامة تحالف لاينطوى على تعقيدات العلاقة مع مصر .. ان الاتحاد السوفييتى قد أصبح له دور بارز فى العراق .. ان دوافع الروس سياسية مثلما هى اقتصادية ، يوضح ذلك تصريحات القادة السوفييت بانهم يقولون لاجدال فى انه سيقوم هناك نوع من انواع العلاقات الرسمية فى المستقبل القريب وسيتوقف هذا بطبيعة الحال على نوايا السوفييت فى الخليج العربى .

● قالت صحيفة « جورنال دى جنيف » السويسرية فى ابريل ١٩٧٢ : ان وجود كوسيجن فى بغداد لم يكن لمجرد افتتاح حقل بترول « الرميلة » الشمالى ، أو للتعبير عن الود الذى يكنه الاتحاد السوفييتى لدولة لم تكن تحظى حتى وقت قريب بثقة زعماء الكريملين . ان تغلغل السوفييت فى العراق والخليج ودخولهم من الباب الخلفى فى المنطقة يهدد منطقة الخليج والعلاقات العربية الاخوية .

● وقالت صحيفة «نيوزيورخر» السويسرية فى ابريل ١٩٧٤ : « يسعى الاتحاد السوفييتى فى العودة الى جنيف لان فى امكانه أن يلعب هناك دورا دبلوماسيا من الدرجة الاولى لان دبلوماسية الزيارات للقاهرة ودمشق التى يتبعها كيسنجر تجعل الروس يقفون فى الظلال ويحاول الروس توجيه السوريين الى طريقهم الخاص نحو السلام الذى يهدف الى ابقاء سورية ورقة فى ايديهم يلعبون بها كيف شاءوا فى منطقة الشرق الاوسط » .

ان اتجاهات الراى العام فى أنحاء العالم تؤكد ما أشار اليه الرئيس انور السادات من أن الاتحاد السوفييتى يحاول ان يضرب الانظمة العربية ببعضها ليتسنى له السيطرة عليها ، كما أن الاتحاد السوفييتى

لايتقرب الى العراق الا عندما يستغنى عن خبرائه فى مصر ، ولا يتقرب الىسورية الا عندما لايحقق كل اماله فى بغداد ، ثم يعود الى اللعبة من جديد مرة اخرى لعله يظفر بموطن للقدم فى اى بلد عربى .

ونصل بعد ذلك كله الى التركيز على ماذكره الرئيس السادات فى خطابه هذا الاسبوع ، بمناسبة افتتاح الدورة الجديدة لمجلس الشعب والذى يعتبر بمثابة صفعة قوية لكل الحاقدين والموتورين وحملة الشعارات.

« فليس لدينا ـ كما يقول الرئيس السادات أرض عربية أعز من أرضنا ، فالقدس ونابلس والخليل وجبل الشيخ ليست اقل اعزازا من القنيطرة والعريش

« ومن هذا المنطلق فان سياستنا تقوم على الايجابية ومرونة الحركة مع ثبات الهدف الاخير وبالتالى عدم تفويت اى فرصة لتحرير الارض العربية حيثما تكون

« اننا لم نلق السلاح ، ولم نوقع اية وثيقة نهائية .. اننا نعرف أنه بغير هذا الاستعداد المستمر للحرب لايمكن أن نصل الى سلام يمكن أن يوصف بالعدل . فى أساس حساباتنا أن تكون سنة ٧٦ هى سنة فلسطين .. ان كارثة فى لبنان قد تكون اكبر فى حجمها من كارثة فلسطين سنة ١٩٤٨ والوقت لم يفت لاطفاء الفتنة وقطع الايدى المدسوسة وسلوك طريق العمل السياسى لتطوير أوضاع لبنان كما يريد شعب لبنان . نحن نريد للبنان ما أراده له مؤسسوه . ليس للاستعمار مقرا ولا ممرا ، ونموذجا للتعايش بين الطوائف والمذاهب ونافذة عربية على العالم وجهها عربى وقلبها أيضا عربى » .

وبعبارة قصيرة موجزة نقول ان سياسة مصر واضحة لا لبس فيها ولا غموض . وهى نابعة عن ايمان صادق بمصالح الامة العربية . ومصر ، عند كلمتها ، لايمكن أن تتراجع قيد انملة عما ارادته من خير للامة العربية مهما ازدادت حملات الحاقدين والحاسدين والذين لايفكرون الا بحناجرهم ولا يحاربون الا وراء الميكروفونات .

وعلى هؤلاء ان يفطنوا لتلك الحقيقة وأن يكفوا عن هذا العبث الذى يملأون به صحفهم واذاعاتهم وأن ينزلوا الى الشارع العربى ليروا كيف يؤيد العرب مصر فى سياستها الى أبعد حدود التأييد ، وعليهم أيضا أن يوفروا اموال الشعب العربى التى ينفقونها بسخاء

لاثارة الراى العام العربى ضد مصر وكيف نضيع تلك الاموال هباء منثورا .

لقد كسب الرئيس السادات طوال السنوات الخمس الماضية ثقة الشعب العربى كله ، كسبها بالحب والايمان والصدق والاخلاص ، كما كسبها بنكران الذات وغالى التضحيات .

اما هم فمهما قالوا ، ومهما انفقوا ومهما اعدوا من مقالات وبيانات ومسيرات فان احدا من شعبنا العربى لن يلتفت اليهم ، وحتى اولئك الذين ياخذون منهم الاموال الوفيرة يضحكون عليهم ويسخرون منهم .

صبرى أبو المجد